سياسة العنف في الخطاب الديني الأموي ـ دراسة في الأنساق المضمرة

علي صالح زبون
Albhadly818@gmail.com
أ.د أحمد حياوي السعد
dr.ahmedalsaad89@gmail.com
جامعة البصرة/ كلية الآداب

الملخص

يتناول البحث ظاهرة طغت على سياسة حكم بني أمية، ألاَ وهي اتخاذ الدين وسيلة لتمرير سياسة العنف، التي تبنوها في معاملتهم مع الرعية والمعارضين لحكمهم، وبسط نفوذهم السياسي والقبلي وفق الحكم المطلق وإقصاء الآخر، والمحافظة على وجودهم المتمثل بالخلافة؛ ولكن بصيغة غير شرعية، الأمر الذي جعلهم يتخذون الدين قناعاً لممارساتهم، وأساساً في أفعالهم السلطوية.

لذلك سنقوم في هذا البحث بإعادة قراءة النصوص الشعرية وفق التحليل الثقافي ؛ لكشف المضمر المختبئ خلفها؛ ولمعرفة الخطاب الحقيقي، الذي تبناه بنو أمية في تمرير العنف وشرعنته على أسس دينية مزيفة.

الكلمات المفتاحية: **سياسة العنف، الخطاب الديني الأموي.**

Abstract

The research deals with a phenomenon that dominated the policy of the Beni Umay's rule .Which is the adoption of religion as a means to pass the policy of violence, Which they adopted in their treatment of the citizens and those opposed to their role, extending their political and tribal influenced according to the absolute rule and exclusion of the other and to preserve their existence represented by the caliphate, But in an illegitimate form ,Which made them take religion as a mask for their practices, and the basis for their tyrannical actions.

Therefore, In this research , we will to re-read the poetic texts according to the cultural analysis to reveal the implicit hiding behind it; And to know the true discourse adopted by Banu Umaya in passing violence and legitimizing it on false religious ground .

المقدمة :

تكمن قوة الخطاب الديني وسلطة تأثيره على أغلب أفراد المجتمع، نتيجة ارتباطه المباشر بالمقدس السماوي، والمنظور الإلهي، والشريعة السماوية . فالدين يمثل أعلى سلطة تتوقف عندها كل السُلط، فيأخذ أبعاده الروحية والقدسية من لدن الخالق، فتترتب لذلك طاقات محركة للاوعي الجمعي يجعل الأفراد يؤمنون بما يمليه عليهم المقدس من أفكار وإيديولوجيات ترتبط بالمذهب والعقيدة والاتجاه.

لقد تبنى بنو أمية الخطاب الديني وتضمينه في الشعر الأموي، بوصفه قوة تأثيرية مارسوا من خلاله أفعالهم السلطوية وفرضوا سيطرتهم على الرعية، وتواروا وراءه ؛ لتحقيق سياستهم القائمة على السلطة المطلقة في تسنمهم الخلافة، فلم يكن الدين، أو الإسلام بصورة خاصة، إلاَّ غطاءً استغله بنو أمية ومرَّروه على أذهان العامة من الناس للتغرير بهم واستغلالهم لتحقيق مآربهم السياسة.

ولكن هذا يفضي بنا إلى سؤال مفاده، ما مضامين هذا الخطاب ومقوماته وآلياته ومصاديقه على أرض الواقع .. التي جعلت منه خطاباً سلطوياً متسيِّداً من بين باقي الخطابات ؟ هل امتلك هذا الخطاب القدرة على السيطرة على أذهان الجمهور بصورة فعلية بمحض إرادتهم أم قسراً ؟ وما نتائجه على الساحة السياسة ؟ ثم ما المعاني المبطنة وراء هذا الخطاب والأنساق المضمرة المتشكلة في النص الجمالي؟

وتأسيساً على ذلك ارتأينا العمل على تعرية الخطابات التي تتسم بالسلطوية واتخذت من الدين وسيلة للنفوذ والسيطرة ؛ في محاولة لمعرفة مدى مصداقية هذا الخطاب، ولمعرفة ما إذا كان هذا الدين حقيقياً أم لعقاً على ألسنتهم وغطاءً استند إليه المتغطرسون ؛ لاعتلاء السلطة السياسية والمحافظة عليها .

أولاً : آليات السلطة في تمرير خطاب العنف :

لقد تبنى بنو أمية سياسة جديدة في التعامل مع الرعية، وفي دحض كل قوة تحاول الوصول إلى السلطة، فلم يتوقفوا على السلاح المادي في إبراز القوة والبأس والشدة، بل مالوا إلى العصبية القبلية ؛ لأنَّها تقوم على الثأر والسلطة المطلقة واستعمال القوة في الصراع مع الآخر، فضلاً عن كونها استراتيجية من استراتيجيات السلطة في الدفاع عن كلِّ ما يتهدد مصالحها، فلا بدَّ من أنْ تكون لديها قوة عسكرية تظهر تجلياتها في الخطاب، وتتجلى أكثر بقوة الخليفة وشدة بأسه.

فقد أسس بنو أمية ثقافة تقوم على شرعنة العنف وتمجيده من منظور ديني ؛ للدفاع عن الخلافة، التي تعكس صورة الإسلام، وبالتالي إنَّ أيَّ خطر تتعرض له الخلافة، يكون مبرراً للدفاع عنها من منظور ديني . وهذه وسيلة ثقافية تفترض وجود ثقافة للعنف تجسد اتجاهات

المجتمع نحو العنف وتمجيد الأعمال الإرهابية السلطوية وتزيينها بثقافة أساسية أو فرعية تمجد العنف وتقرر شرعيته بالاتكاء على نماذج شعرية وثقافية ذات أبعاد دينية[١] . فالثقافة بوصفها سلطة تمارس نوعاً خاصاً من أنواع العنف، عبر أدواتها المهيمنة، تكون أداة من أدوات الهيمنة، تستخدمها المؤسسة لغرض بسط سلطانها وتمكين تسلطها، ولا شك أنَّ كل مشروع سياسي لا بد وأنْ يهيئ القاعدة الأساسية لدعم السلطة ونفوذها[٢].

ولذلك أضفى شعراء الحزب الأموي على حكام بني أمية سمات وصفات تجعل منهم قادة يُعتمدُ عليهم في الشدة والرخاء، وزينوهم بهالة قدسية مؤطرة بقناع ديني إسلامي، إذ يقول الأخطل في مدح عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان :

قَرْمٌ تَمَهَّلَ في أميَّةَ لم يَكُنْ فيها بِذِي ابنِ ولا خوارِ
ينبتْ قناتُك مِنهُم في أسرةٍ بيضُ الوجوهِ مَصالتِ أخيارِ
جُهراء للمعروفِ حينَ تراهمُ حُلماء غير تنابل أشْرارِ
قومٌ إذا بسطَ الإلهُ ربيعَهُم دارتْ رَحاهُ بمُسيلٍ درَّارِ
وإذا أريدَ بهم عقوبةُ فاجرٍ مَطَرتْ صواعقُهم عليه بنارِ
قومٌ هُمُ نالُوا التَّمامَ وأزحفَتْ عنهُ مذارعُ آخرينَ قِصارِ[٣]

سار الشاعر على نسق ثقافي جاهلي، في إظهار قوة الممدوح، فهذه القوة لم تأتِ من فراغ، لذلك احتج الشاعر بقوة قبيلتهم بالركون إلى أصلهم المعروف، وتبرز الأبيات الجانب العملي في تطبيق سياستهم، الذي يتحدد بالجمل الثقافية (**جُهراء للمعروف حين تراهم**) و(**حلماء غير تنابل أسرار**)، فهذا يعكس الجانب الإيجابي في التعامل الذي يحمل سياسة اللين والرفق مع مَنْ يلتزم ويرضخ لسياستهم (سياسة إخضاع)، وكأنَّ هذا البيت جاء على نسق الآية القرآنية من سورة التوبة{ **محمد رسولُ اللهِ والذينَ معه أشداء على الكفّار رحماءُ بينهم** } [٤] ، فالشاعر يحاول تبرير سياستهم من منظور إسلامي وقبلي يحتفظ بالعادات والأعراف الاجتماعية للقبيلة، وبالسنن التي وضعتها القبيلة للتعامل مع أفرادها، ولكن ستكون العقوبة شديدة بحق كل مَنْ يتجاوز الحقوق وينحرف عن الطريق، وهذا يتحدد بالجملة الثقافية (**وإذا أريدَ بهم عقوبةَ فاجرٍ .. مَطَرتْ صواعقهم عليه بنارِ**)، فتحمل هذه الجملة دلالة نسقية مضمرة تؤكد سياسة القوة والبطش للحفاظ على السلطة مهما تطلب الأمر . ومن هنا تتوفر فيهم ـ الحكام ـ كل شروط الخلافة، حسب هذا الخطاب، من حيث القوة والزعامة القبلية والحجة في استعمال العنف في التعامل مع الرعية وفق منظور ديني.

وعلى السياق الشعري نفسه يمدح النابغة الشيباني الوليد بن عبد الملك، مؤسساً لخطاب سياسي يعتمد منهج القوة والبأس الشديدين في الدفاع عن الخلافة، فتظهر صفات الشجاعة جلية في قوله :

تنوي الوليدَ أميرَ المؤمنينَ وإنْ طالَ السِّفارُ واضحتْ دونَهُ الطَّبَسُ
خليفةُ اللهِ يُستسقى الغمامُ بهِ ما مسَّ أثوابَهُ منْ غَدْرَةٍ دَنَسُ
ملكاً هماماً يُحيلُ الأمرَ جائلُهُ إذا تحيّرَ عندَ الخُطَّةِ الهَوَسُ
دانتْ له عربُ الأفاقِ خشيتَهُ والرُّومُ دانت له جمعاءُ والفُرُسُ
هدتْ أميةُ سُبْلَ الحقِّ تابِعها إنّ الأمورَ على ذي الحقِّ تَلْتَبِسُ
إذا قريشٌ سمتْ كانوا ذوائبَها وخيرَهُم منبتاً في المجدِ إذ غُرِسُوا(٥)

يهيئ الشاعر المهاد المعرفي والقاعدة السلطوية التي ينوي من خلالها تهيئة القاعدة الجماهيرية فيُعرِّفهم ـ الجمهور ـ بالخليفة من خلال إظهار السجايا الحميدة التي تمكنه من بلوغ السلطة، فيصفه بأمير المؤمنين، وهذه الصفة لا ينالها إلاَّ مَنْ وصل إلى درجة الكمال الديني والأخلاقي، والقدرة على إدارة أمور المسلمين . وبذلك استطاع الشاعر أنْ يجمع كل الأدوات ويوظف جميع الخصال التي تجعل من الممدوح شخصية سلطوية نافذة تجتمع فيها كل معايير الخلافة، إذ ((رأى الأمويون أنَّ خطابهم السياسي لا بد أن يشتمل على تركيز وإيجاد مكانة كبيرة للخليفة في نفوس الناس وذلك بالتشديد على عدد من الأمور الهامة وأولها حرمة الخليفة والخلافة))(٦).

وبعد أنْ يتمكن الشاعر من تهيئة الأرضية المناسبة لتعريف الجمهور بالخليفة وإضفاء الشرعية الدينية والثقافية لخلافته، ينتقل إلى النهج السياسي الذي يتبعه ـ الخليفة ـ مع الرعية فضلاً عن إدارة أمور الدولة ؛ لتكون مبرراً لأفعال الخليفة وحجة شرعية لسياسته . فالخليفة يمتلك القدرة في إدارة الأمور بأدوات سلطوية تنماز بالقسوة والعنف والشدة في التعامل مع الآخر، سواء أعداء الدولة أم مع الرعية أم مع المعارضين، وهذا التصوير المخيف لشخص الخليفة، يحمل دلالة نسقية مضمرة تدعو إلى إضفاء الشرعية للعنف والقسوة مستنداً إلى مبررات دينية وقبلية تجعل بني أمية هم أهل الحق والصواب فيما يقولوا وفيما يفعلوا، ((فالخليفة الأموي كان يدرك، تماماً، أنَّ إضفاء الصفات الدينية عليه وعلى الأمويين سيعمل على تحسين صورتهم أمام الرعية، وسيوحي بجدارتهم بإمامة المسلمين، ومن هنا عمد إلى توجيه الشعراء إلى هذا الاتجاه))(٧)، فالسلطة الحاكمة تحرص على ترسيخ نفوذها واستمراره، من خلال الاعتماد على فئة ثقافية تسوغ عمل المؤسسة المهيمنة، وتحمل متبنياتها، وتدافع عن سياستها وآرائها وأفكارها. وبمعنىً آخر إنَّ السلطة لابد أنْ تسيطر على المعرفة ؛ لتعمل على شرعنة أفعالها بمسوغ ديني أو ثقافي مقدس.

لقد استغل خلفاء بني أمية التواري خلف شعارات خلاَّبة تحمل علامات العدل والحكم بما يتفق وتعاليم الإسلام، والتفويض الإلهي للخلافة، التي صارت من نصيبهم بناء على ذلك ؛

ليسموا لهم سياسة قوامها السيف، وفكرها الاستبداد، والسلطة المطلقة ورفض الآخر، وتقييد الحريات[٨]، يقول جرير في مدح الحجاج :

خليفـةُ عدلٍ ثبّتَ اللهُ مُلكـهُ على راسياتٍ لم تُزلْها الزّلازلُ
دَعوا الجُبنَ يا أهلَ العراقِ فإنّما يُباعُ ويُشترَى سَبيُ من لا يُقاتلُ
لقدْ جرّدَ الحجّاجُ بالحقّ سيفَهُ لكمْ فاستقِيمُوا لا يَميلنّ مَائـلُ
فما يَستوي داعي الضّلالةِ والهُدَى ولا حُجّـةُ الخَصمين حقٌ وباطلُ
وأصبحَ كالبازي يُقلّبُ طَرْفـهُ على مَرْبَـاءٍ والطّيرُ منـهُ دواخلُ
وخافوكَ حتى القومُ تَنْزُو قُلُوبهُمْ نُزاءَ القطا التفّتْ عليهِ الحَبائلُ[٩]

لقد سار الشاعر على نسق شعري يرتكز على إضفاء الشرعية لأفعال الخليفة، فيبدأ الخطاب بحجة السلطة المتمثلة بـ (**خليفة الله**)، (**خليفة عدلٍ**) (**أمير المؤمنين**)، هذه الجمل الثقافية التي أخذت وظيفتها كتقنية نسقية تقوّي سلطة الخليفة في إدارة أمور الدولة، وتدعم خطابه، الذي يقوم على أسلوب البطش والتخويف والتهديد والوعيد والترهيب . وبذلك يصبح الخليفة ـ من وجهة نظر الشاعر ـ أداة من أدوات الحرب، يمارس القسوة بحق الرعية، فالسيف كناية عن قوته وشدة بأسه، وكل هذا البطش والقسوة والعنف وجد له مبررا وفق الجملة الثقافية (**لقدْ جرّدَ الحجّاجُ بالحقّ سيفَهُ**)، فقد اعتمد الخطاب على صناعة ثقافية تبرر سياسة الخليفة وتشرعن أفعاله . فالدلالة النسقية المضمرة تدل على تشجيع بني أمية على خطاب العنف، الذي أصبح، بدوره، نسقاً ثقافياً يجعل سياسة بني أمية الرسمية، سياسة سلطوية قمعية مطلقة، ويؤكد هذا قول الحجاج نفسه في خطبةٍ له، يقول فيها : ((أما واللهِ إنّي لأحملُ الشرَّ محمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإنّي لأرَى رُؤوساً قدْ أينعتْ وحانَ قِطافُها، وإنّي لأنظرُ إلى الدِّماءِ بينَ العمائمِ واللِّحى))[١٠].

فالحاكم يمتلك، من خلال هذا الخطاب، الشرعية في تطبيق سياسته الدموية بحق المخالفين، وتبرير كل أفعاله القائمة على سياسة البطش والتنكيل بحق كل مَنْ يعارض سياسة وفكر بني أمية ـ الآخر ـ وفرض الطاعة العمياء بالقسر والقوة على الرعية، فلا مكان لمعارض أو ثورة ضد السلطة ؛ ما دام الحاكم متمسكاً بزمام الدولة، ومتسيّداً برأيه على الرعية، ومرتدياً رداء الدين.

ولم يفت الفرزدق الخوض في هذا الغمار، فكانت حصته في مدح الحجاج النصيب الأكبر، فغدا يضفي عليه معالم الشدة والعنف والقسوة وسياسية سلطوية ممتزجة بشرعية سياسية ودينية تعطي له الحق في ممارسة القمع بحق الرعية، فيقول :

إذا وعدَ الحجّـاج أو هَمَّ اسقطتْ مخافتُـهُ مـا فـي بُطـونِ الحَوامـلِ
له صولـةٌ مَنْ يُوقَهـا أنْ تُصِيبَـهُ يَعِشْ وهو منها مُسْتَخَفُّ الخصائلِ
ولمْ أرَ كالحجاجِ عوناً على التقى ولا طالبـاً يومـاً طريـدةَ تابـل
بسيفٍ بـه الله تضربُ مـن عَصى على قَصر الأعناقِ فوقَ الكواهلِ
شَفيتَ من الدّاءِ العراقَ فلـمْ تدعْ بـه رِيبـةً بعدَ اصطفاقِ الزلازل(١١)

يضفي الشاعر على الخطاب، الشرعية في ممارسة الحجاج للعنف، حتى صار العنف سمة حكَّام بني أمية، وأصبح الحجاج أداة قمعية تمارس شتى وسائل العنف والاضطهاد بحق الجميع، بغطاء شرعي وصناعة ثقافية تحلل له ذلك، فما أنْ يُذكر الحجاج حتى يتراءَى لك صورة السيف والقتل وسفك الدماء .

لقد أخذ الخطاب يضخم من صورة الخليفة ـ والحاكم بشكل عام ـ ليجعله شخصية مرعبة ومخيفة تخاف منه حتى الأجنة في بطون أمهاتهم، وهذا ينعكس، بدوره، ويؤثر على الإسلام، بوصف الحاكم هو مَنْ يمثل الإسلام وشرائعه، ولكنَّه استغل سلطته لتمرير السياسة الجديدة القائمة على العنف وقمع الآخر.

وهنا تبرز الدلالة النسقية المضمرة من وراء هذا الخطاب، الذي تبناه بنو أمية ويتمثل في محاولتهم ضرب الدين وتغيير منهجه وثقافته القائمة على السماحة والرحمة، بثقافة جديدة قائمة على القسوة والعنف . ومحاولة رسم سياسة جديدة ترفض كلَّ محاولة للنيل من السلطة مهما كانت أسبابها ((فقد توهم الطغاة بأنَّ لهم الحق باضطهاد الأجناس الأخرى، لأنَّهم مفوضون من الله، ولا أحقية لأحد في الملك سواهم، وكانت هذه ثمار الخطاب الشعري المرَّة في أدبنا العربي، وإذا كان الشاعر تمادى بتبخيس الفن، فإنّ الناقد الأدبي قد شاركه بترسيخ المبادئ غير الإنسانية حين أخفى عيوب الخطاب الشعري، بل اكتفى بإظهار ما يراه جميلاً، لا سيما في صور الممدوح المبالغ فيها، إذ جعل المبالغة في رسم الصورة أحد معايير الجمال))(١٢).

لقد بنى بنو أمية سلطتهم وأيديولوجيتهم على المرتكز الديني ؛ باعتباره قائماً على قيم ومثاليات مقدسة لا يمكن المساس بها ؛ ليتمكنوا، بواسطته، بسط نفوذهم وتثبيت سلطانهم، فانبروا في خطاب يزعم أنَّهم هم الممثلون الحقيقيون لهذا الدين والمدافعون عنه من أي خطر يهدده، وهم السبب في هداية الناس، وفي هذا الاتجاه يقول الفرزدق في مدح يزيد بن عبد الملك:

هل تعلمون بني أمية قاتلوا إلّا بسيفِ نبوةٍ لم يفلل
ضربوا بحقٍّ نبوةً كانت لهم وسيوف أسدٍ خفيةٍ لم تنكل(١٣)

فالخطاب يقرن النبوة بالسيف المُسلَّط على رقاب الناس، فتكون صورة بني أمية صورة إرهابية تتنافى مع صورة النبي محمد ρ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فضلاً عن فكره ومنهجه .

فالخطاب، بلا شك، يحمل نسقاً مضمراً ينوي تدمير المنظومة الإسلامية المحمدية، ويحاول تزييف الشريعة والدين بهذه الأساليب، فيقتل ويكفِّر باسم الدين .

ثانياً: الحاكم الأموي شخصية سلطوية وقمعية :

إنَّ كلَّ خطاب في العصر الأموي، هو، بلا شك، مرتبط تمام الارتباط بالخطاب السياسي وبمنصب الخليفة وسلطته، والمحافظة عليه أمر في غاية الأهمية ؛ لذلك فقد كان التمثل بالمعاني الإسلامية وسيلة للحفاظ على السلطة السياسية المتمثلة بالخليفة، وقد تجلَّى هذا الخطاب في قصائد الفخر والمديح السياسي والقبلي، التي تحفل بنزعة إرهابية عبر ملامح الصورة المرسومة للممدوح، التي تجعل منه شخصاً طاغياً بقناع ديني فني تجديدي[١٤]، ((فيصبح الخليفة في نظر الشعراء، مرسخاً لعرى الإسلام ومنافحاً عن تعاليمه، ويصبح الشعر معبراً عن شعور الرعية تجاه الخليفة))[١٥]، فها هو الفرزدق يمدح بني مروان ويجعلهم المدافعين عن الإسلام والمحافظين على بقائه ومكانته، فيقول:

إذا لاقى بنو مروانَ سلُّوا لدينِ اللهِ أسيافاً غِضابا
صوارمَ تمنعُ الإسلامَ منهم يُوكَّلُ وقعهُنَّ بمنْ أرابا
بهنَّ لقوا بمكة ملحديها ومسكنٌ يُحسنون بها الضِّرابا
فلم يترُكْنَ من أحدٍ يصلِّي وراءَ مُكَذِّبٍ إلّا أنابا
إلى الإسلام أو لاقى ذميماً بها رُكْنُ المنيةِ والحسابا[١٦]

إنَّ التفسير الظاهر للخطاب، في هذه الأبيات، هو مدح بالصفات الإسلامية التي يتمتع بها الخليفة، إلاَّ أنَّ التفسير المضمر الذي يتمظهر بفعل القراءة الثقافية يعلن عن معان مخبوءة أراد النَّاص أنْ يخفيها عن الخليفة، لكنَّها تعلن عن معنىً صادم للمتلقي لا يظهر عند القراءة الأولى، فالمسكوت عنه يُبيِّن أنَّ هناك انحرافاً لدى الخليفة في تطبيق الإسلام ونشره، جعلت منه أداة قمعية تفرض الإسلام بقوة السيف، وهذا ما يتنافى مع الإسلام ومنطقه وعدم تطبيقه بالإكراه **{لا إكراه في الدين}**[١٧] . فالمدح في هذه الأبيات برغم ما جاء به من تمجيد للخليفة، فإنَّ القارئ الحاذق يكشف خفايا النص من خلال النسق المضمر، وكأنَّ الإسلام قوة مسلطة على رقاب البشرية، وليس رحمة للعالمين . فالأبيات تحمل أنساقاً جاهلية متأثرة بالعصبية القبلية، تعمل على شرعنة العنف والقسوة بغطاء ديني استبدادي متمثل بشخص الخليفة .

ووفق القراءة الثقافية، فالشاعر لا يمدح الخليفة بالسجايا الحميدة والصفات الجيدة، بل مدح صفات القسوة والعنف والشدة والتهديد والوعيد، وفي هذا دليل واضح على أنَّ خطاب بني أمية سلطوي قمعي، بالدرجة الأساس، حتى أنَّهم استغلوا الدين لتحقيق هذه الغاية . وهذه سياسة جديدة من لدن الحكام لإضفاء الشرعية على ممارسة العنف والقسوة وسفك الدماء، فالخطاب يحمل نسقاً مضمراً يدعو إلى الإرهاب وتكفير الآخر .

ويتكرر هذا المشهد على لسان جرير، وهذه المرَّة يتجاوز فيه الخليفة على الحريات الدينية الأخرى، محاولاً جعل الخليفة أداة سلطوية قمعية ضد كل الديانات، بما فيها النصرانية، بقناع إسلامي، وهذا الخطاب، هو بحدِّ ذاته، تشجيع لخلفاء بني أمية على ممارسة القسوة . يقول جرير في مدح الوليد بن عبد الملك :

ولقدْ سَموتَ إلى النصارى سموةً رَجَفَتْ لوقعتها جبالُ الديلمِ
إنّ الكنيسةَ كان هدمُ بنائها قسراً فكانَ هزيمةً للأخرمِ
فأراكَ ربُّكَ إذ كسرْتَ صليبَهُمْ نورَ الهدى وعلمتَ ما لم نعلمِ(١٨)

فيقرن نشر الدِّين والهداية بقوة السيف وإخضاع الآخر وتعنيفه، فضلاً عن ذلك عدم احترام الحريات الدينية . فهدم الكنائس هي صورة من صور التجاوز على الحرية الدينية، وبذلك يخرج الدين ـ بهذا الفعل ـ عن معناه الإنساني الذي ينماز بالسماحة والرحمة، إلى معنى إرهابي قمعي. فالدلالة النسقية لهذا الخطاب الشعري مضمرة بخطاب قسري تهديدي في النظر إلى الآخر المختلف .

ولم يكن الفرزدق بعيداً عن هذا الخطاب، بل كان له حصة في مدح الوليد بن عبد الملك الذي تناول فيه قضية الكنيسة، أيضاً، وفق نسق ثقافي مشابه لما تناوله جرير، فيجعل الخليفة في مصاف الأنبياء، في قضائهم على الشرك والأوثان، فيقول :

فرَّقتَ بين النصارى في كنائسهم والعابدينَ مع الأسحارِ والعتمِ
وهمْ معاً في مصلَّاهم وأوجههمْ شتَّى إذا سجدوا للهِ والصنمِ
وكيف يجتمعُ الناقوسُ يضربهُ أهلُ الصليبِ مع القُرّاءِ لم تنمِ(١٩)

فالخطاب يستند إلى الدين لتمرير إيديولوجية السلطة الحاكمة التي تزعم، من خلالها، تطبيق السلطة المطلقة، واستبداد الحكم وتقويض حرية الآخر، والحكم عليه بالشرك والضلالة؛ فالخطاب يجعل بني أمية هم خير مَنْ يمثل الإسلام الصحيح ـ حسب نظريتهم ـ وهذا يتحدد في الدلالة النسقية في الجملة الثقافية التي صاغها بصيغة الاستفهام (**وكيف يجتمعُ الناقوسُ يضربهُ أهلُ الصليب مع القرّاء**)، فالناقوس كناية عن تعبد المسيح في الكنيسة، فيكون هذا التعبير أشبه بالمثل الذي يسقطه الشاعر على مضمون الخطاب، أي أنَّ هناك دعوة من السلطة على تبنِّي خطاب الإقصاء، وإخضاع الناس للدين بالقسر والقوة . الدين الذي أصبح غطاءً لتمرير سياستهم، وهم لا يقصدون ـ برأينا ـ اعتناق الدين الإسلامي ؛ إنَّما قصدهم الانضواء تحت قيادة الامويين والانصياع لأوامرهم .

وفي سياق مدحي لعبد الملك بن مروان يسلك الفرزدق الخطاب نفسه في إضفاء وسائل القسوة والشدة والعنف ممتزجة بالدين الإسلامي والدفاع عنه، فيقول:

أرضٌ رُميْتَ إليها وهي فاسدةٌ بصارمٍ من سيوفِ الله مشبوبِ
مجاهدٍ لعداةِ اللهِ مُحتسبٍ جهادهم بضرابٍ غير تذْبيبِ
لا يَغْمِدُ السيفَ إلّا ما يُجَرّدُهُ على قَفَا مُحْرِمٍ بالسُّقِ مصلوبِ
فالأرض لله ولّاها خليفتهُ وصاحب الله فيها غيرُ مغلوبِ(٢٠)

الخطاب مغلَّف بقناع ديني وأدوات ثقافية تنماز بالعنف والبأس والشجاعة، فالسيف يحمل دلالة رمزية لهذه الصفات، فما أنْ يصبح بيد الحاكم حتى يتحول إلى أداة قمعية وسلطوية، فالنسق المضمر الذي يندرج فيه الخطاب له دلالة تهديدية للآخر، فالحاكم لا يعرف سوى منطق القوة والقسوة والبأس، وفي مقابل هذا احتاج أنْ يمزج هذا الخطاب بقناع إسلامي حتى يضفي عليه الشرعية ؛ لِمَا يمتلكه الدين من سلطة مقدسة تحافظ على الخطاب وتجعل أفعال الحاكم رشيدة وصائبة من منظور ديني، وتحت غطاء الدلالة الدينية . فالجملة الثقافية التي يرتكز عليها الخطاب تتلخص في (**وصاحب الله فيها غيرُ مغلوبِ**)، فتأتي هذه الجملة محملة بالأنساق المضمرة التي تؤكد اتباع بني أمية طريقة جديدة في سياستهم، وهي تبنّيهم سياسة العنف والشدة والقسوة مع الآخر مقتبسين الشرعية من الغطاء الديني، أي أنَّ أوامرهم يأخذونها من الله ؛ لأنَّهم خلفاؤه على حدِّ زعمهم.

ويتكرر هذا الخطاب لدى الفرزدق، أيضاً، عند مدحه للحجاج، معتمداً على نسق شعري واحد، ونسق ثقافي يرتبط بتمجيد الحاكم ونعته بصفات القوة والقسوة والعنف، وكأنَّ حاكم المسلمين أصبح صورة من صور الشدة والقسوة وليس تجلّياً من تجليات الرحمة والإنسانية والمودة والرفق . وهذه الثقافة سار عليها أغلب حكام بني أمية، حينما جعلوا الخطاب الديني وسيلة أو ركيزة لتبرير خطاب العنف ولتمرير هذه الثقافة على الآخرين، يقول :

أميرُ المؤمنين وقَدْ بلونا أمورَكَ كُلِّها رشداً صوابا
تعلَّم إنما الحجاجُ سيفٌ تجذُّ به الجماجم والرقابا
هو السيفُ الذي نصرَ ابنَ أروى به مروانُ عُثمان المُصابا
إذا ذكرت عيونهم ابن أروى ويومَ الدَّارِ أسهلتَ انسكابا
خليلُ محمدٍ وإمامُ حقٍّ ورابعِ خيرِ من وطئ التُرابا
فليسَ بزايلٍ للحرب منْهُم شِهابٌ يُطبقونَ به شهابا
وخاضب لحيةٍ غَدرتْ وخانتْ جعلتَ لشيبها دَمُهُ خِضابا
وملحمةٌ شهدتَ ليومِ بأسٍ تزيدُ المرءَ للأجلِ اقترابا
رأيتُكَ حينَ تعترِكُ المنايا إذا المرعوبُ للغمراتِ هابا
تهونُ عليكَ نفسُكَ وهو أدنى لنفسِكَ عند خالقها ثوابا
فمنْ يَمنُنْ عليكَ النصرَ يَكْذِبْ سِوَى اللهُ الذي رَفَعَ السَّحابا(٢١)

يستمر الفرزدق في نسق شعري مشابه للخطاب السابق، فيجعل من الخطاب الديني أداة سلطوية تسخر للحجاج الشرعية في استخدام العنف والشدة، ويبدأ الخطاب الديني بالجملة الثقافية (**أميرُ المؤمنين وقَدْ بلونا .. أمورَكَ كُلِّها رشداً صوابا**)، التي تحدد مركزية الخطاب في شخص الخليفة الذي يمثل الإسلام، فهو أميرُ المؤمنين وكل ما يفعله رشداً وصواباً ؛ لأنَّه يرتكز على الخطاب الديني الذي نالَ فيه الحجاج ـ واليه ـ الرفعة والقبول من قدسية هذا الخطاب .

ثمَّ تتحدد الدلالة النسقية المضمرة من وراء هذا الخطاب لتعرب عن سياسة الخليفة في تبني مشروع جديد يتخذ من الإسلام غطاءً لتطبيق إيديولوجيا تقوم على تعنيف الآخر، وإقامة حكم قائم على القوة والتسلط والقسوة في التعامل مع الآخرين، وكأنّ مصطلح أمير المؤمنين قد اتخذ طابعاً جديداً لدى بني أمية، يختلف عما كان في زمن الرسول ρ أو الإمام علي υ .

ويتكرر هذا الخطاب، أيضاً، عند الفرزدق على النسق نفسه، من الترهيب والوعيد والتهديد، معتمداً على عناصر ثقافية تتميز بالعنف والسطوة، فيقول:

إذا ما بدا الحجّـاجُ للناسِ أطْرقُوا وأسكتَ منهمْ كلُّ منْ كانَ يَنطقُ
فما هو إلا بائـلٌ من مخافـةٍ وآخرُ منهمْ ظلّ بالرّيق يَشْرَقُ
وطارتْ قلوبُ الناسِ شرقاً ومَغْرِباً فما الناسُ إلا مُهجِسٌ أو مُلقْلِقُ(٢٢)

يعتمد الشاعر على دقة التصوير والهيئة التي يكون فيها الآخر (المعارض)، في مقابل تصوير شخصية الحجاج المخيفة من خلال ما وظفه الشاعر من أساليب وأدوات تُبيِّن بطش الحجاج وسياسته القمعية، التي تتجلى في الأفعال (أطرقوا ـ أسكتَ ـ بائل ـ يشرق ـ مهجس ـ ملقلق)، فهذه الأفعال تُبيِّن، أيضاً، حال الرعية الخاضعة ؛ جراء العنف الذي مُورس بحقهم، فأصبح كل فعل من هذه الأفعال، يمثل تقنية نسقية، تحمل دلالة نسقية مضمرة، تدل على رضوخ الرعية وسكوتهم أمام بطش الحاكم.

فالنسق المضمر يعمل على تعرية سياسة الحاكم القمعية بحق الرعية، التي عملت على تكميم الأفواه وتطبيق السياسة بالقسر والإكراه، فيتجرد الحاكم من كل معاني الإنسانية والرحمة والعدالة، فينقلب الخطاب سلباً على بني أمية بكشفه زيف السلطة وسياستها الجائرة .

فهل هذا مَنْ يمثل سياسة النبي محمد ρ وفكره، مـــع رعيته، بل حتى مع عدوه ؟ . حسب القراءة الثقافية هناك نوايا كثيرة أدت إلى ترويج وتسويغ الخطاب الذي يدعم هذه السياسة القمعية، منها أنَّ الخليفة قد شجَّع هذا الخطاب ؛ ليبرر سياسة الحاكم الأموي وسيطرته على أفعال الرعية، فهذا الخطاب لا يخص أعداء بني أمية، بل هو خطاب عام لكلِّ الناس، فالخضوع والخوف واضح على الناس نتيجة تسلط الحاكم الذي يمثل سياسة الخليفة نفسه.

ونتيجة لذلك أخذ الخطاب الديني يتطور وينحو منحىً جديداً نتيجة سياسة بني أمية القمعية، وكأنَّ الشاعر لا يصف أميرَ المؤمنين ؛ بل جلاداً أو دكتاتوراً أو سيَّافاً سفاكاً للدماء لا يملُّ من القتل .

ثم تتوارد الجمل الثقافية بعد ذلك متمثلة في (**تعلَّم إنما الحجاجُ سيفٌ**)، (**هو السيفُ الذي نصرَ ابنَ أروى**)، (**خليلُ محمدٍ وإمامُ حقٍّ**)، فالحجاج الصورة المقابلة للسيف الذي هو كناية عن العنف، فما أن ذكرت الحجاج حتى يتبين لك السيف الذي يقتل، فالسيف يحمل دلالة رمزية للقوة والشدة والبأس والشجاعة، ثم يردفها بخطاب ديني يبين فيه علاقة الحجاج والسيف بالإسلام، ليدل بذلك على أنَّ السيف والقسوة مسلطة لأعداء الدين والدفاع عن الإسلام، لكن مَنْ هم أعداء الدين ؟ ومن المقصود بالخطاب؟ يبدو أنَّ الخطاب يعمل على تكفير الآخر مهما كانت توجهاته، فالمهم أنَّ يكون بنو أمية بمعزل عن الآخرين منفردين بالسلطة، فيصبح الخطاب الديني أداة سلطوية تدعو إلى الشدة والقسوة والعنف ؛ ولتبرير أعمال الحجاج في القتل واستباحة الدماء من خلال الألفاظ (السيف، الجماجم، الرقاب، الدم) وتأتي ممزوجة بقناع ديني يعمل على شرعنة موقف الخليفة الإسلامي متمثلاً بألفاظ دينية (أمير المؤمنين، الرشد، الصواب، الشهاب، الثواب، خليل محمد) .

ونتيجة لذلك يكون الخطاب الديني بمثابة الفتوى الشرعية التي يستند إليها خلفاءُ بني أمية لتبرير أفعالهم المنافية للشريعة الإسلامية والمخالفة لمنهج الإسلام المحمدي، لذلك جاء الخطاب الديني، في أغلب الأحيان، ممزوجاً بالفخر القبلي والمدح بأفعال الخليفة التعسفية والقمعية.

ثالثاً : الاستبداد الديني والحكم المطلق ـ وسيلة سلطوية لتهميش الآخر :

من بين الخطابات الشعرية التي ظهر فيها التفرد بالسلطة، واضحاً، وجعلت بني أمية هم من مثَّل الدين الصحيح هو الخطاب الديني السياسي، فقد وصفهم بأنَّهم هم من دافع عن الدين وشيَّد ركائزه، فظهرت المبالغات الشعرية المتمثلة بالمديح والفخر الديني، التي كانت الأساس في تمرير سياسة بني أمية، وحملت دلالات نسقية مضمرة تشير إلى إضفاء الشرعية على سياستهم القمعية، هذا فضلاً عن محاولة بني أمية تأسيس دين جديد مخالف للدين الإسلامي قائم على الإرهاب والقتل والقسوة والعنف وإقصاء الآخر وتكفيره، وإرغام الآخرين على الدخول في هذا الدين .

ولعلَّ من الخطابات التي تظهر التفرد بالسلطة، قول الفرزدق وهو يبالغ في مدح بني مروان، بوصفهم عماد الدين . وهذه المبالغة تظهر سلبياتها على مُنْشِئ الخطاب، الذي يضفي على الممدوح ما لا يمكن أنْ يتوفر فيه في الواقع، فيصبح الخطاب ضرباً من الخيال ؛ لأنَّه يهمل الآخرين وينكر ما قدموه للإسلام، يقول :

وجدنا بني مروانَ أوتادَ ديننا كما الأرضُ أوتادٌ عليها جبالها
وأنتم لهذا الدين كالقبلةِ التي بها إنْ يضلُّ الناسُ يُهدى ضلالها(٢٣)

فالدين متأسس فيهم وبهم وعليهم دون سواهم، وهذا فيه مبالغة كبيرة، إذ يعمل هذا الخطاب على تجريد الآخرين من الدين وإقصائهم منه، لا بل جعل بني أمية عماد الدين وأساس الهداية.

إنّ مثل هذا الخطاب له تبعات سلبية على الممدوح، فهو أداة يمكن أنْ تقتل صاحبها إذا ما توفرت فيه هذه الصفات، إذْ سيصبح عرضة للسخرية من الآخر نتيجة أضفاء صفات ليست موجودة فيه في الواقع . فالشاعر عمل على توجيه الأنظار إليه لمعرفة مدى تناسب هذه الصفات مع شخصية الخليفة . ولرب سائل يسأل هل صحيح أنَّ بني أمية هم قبلة الدين ؟ إنَّ هذا الخطاب يحمل دلالة نسقية مضمرة تؤكد سياسة بني أمية في تبنيها لسلطة قائمة على تهميش الآخر، وسياسة تتمثل في الحكم الاستبدادي، فقد صنعت لها مجداً خاصاً وديناً خاصاً وسياسة تقمع كلَّ مَنْ يخالفها أو يخالف الدين الذي رسمت معالمه كيفما تريد لا الدين الإسلامي المحمدي .

وازداد هذا النوع من الخطاب عند كل من جرير والأخطل، فهما الأداة الإعلامية لبني أمية، فراح كلٍّ منهما يضفي على الخليفة الأموي العبارات المقدسة والألفاظ الإسلامية الرنانة التي تفوق شخص الخليفة، حتى صار بفضله قوة متنفذة ومسيطرة على الرعية.

إلاَّ أنَّ المغالاة في المديح قد تظهر لها نتائج غير إيجابية، قد تنقلب سلباً على الممدوح، لأنَّها قد تكون، في الأعم الأغلب، غير حقيقية، وعند ذلك ينقلب السحر على الساحر . وقد يكون الشاعر مدركاً لهذا اللعب في الفن الشعري، ولكن يمارس سياسة المراوغة والمخاتلة على المخاطَب ؛ فيتوارى خلف الخطاب محاولاً إخفاء المضمر الذي لا يود التصريح به في الوقت الراهن.

ولكن بفعل القراءة الثقافية الفاحصة تتبيَّن لدى القارئ انساقاً مضمرة مخفية في الخطاب لم يصرح الشاعر بها في الوهلة الأولى من انتاج الشعر، وهذا يتوقف على موقف الشاعر من الممدوح، وسياق إنتاج الخطاب، ولحظة القراءة .

ويأتي خطاب جرير معلناً تفرد بني أمية بالسلطة حينما يمدح عبد الملك بن مروان، فيضفي عليه قدرات خارقة تجعل منه أمين الله، وخليفة رسوله، فيقول :

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرأهُ ما قامَ للناسِ أحكامٌ ولا جُمَعُ
أنتَ الأمينُ أمينُ اللهِ لا سرفٌ فيما وليتَ ولا هيابةٌ ورعُ(٢٤)

اعتمد الشاعر في خطابه على أدوات نحوية وتعبيرية، تحمل دلالات سيميائية وثقافية تتجلى في أداة الشرط (لولا)، التي هي حرف امتناع لوجود، أي لولا وجود الخليفة الأموي لَمَا قام للناس أحكامٌ ولا جُمع . فالجملة الثقافية (**لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرأهُ**)، تجتمع فيها كل

الامتيازات والشروط الدينية، التي تجعل الخلافة مختصة ببني أمية، فتأتي هذه الجملة بدلالة نسقية مضمرة تعرب عن موقف بني أمية من الآخر . فهذا التزمت الذي لا يعطي للآخر الفرصة في تسنم أي منصب، غرضه، في المحصلة الأخيرة، هو الخلافة والسلطة . فقد اكتشف بنو أمية أنَّ الخطاب وسيلة من وسائل بلوغ السلطة، فكان خطابهم مؤسساً على نسق ثقافي مشابه ـ إلى حدٍّ ما ـ نسق السلطة ونسق القبيلة فكل الأنساق تصب في مصب واحد وهو التفرد وإقصاء الآخر.

وبذلك تتحول القوة والشجاعة التي يُوصَفُ بها الخليفة، في دفاعه عن الدين، إلى أداة قمعية تتسم باللاإنسانية وعدم الرحمة واحترام الآخر، فجرير يمدح عبد الملك بن مروان، ويسرف في مدحه الإسلامي بحماسة جاهلية، معتمداً على عامل القوة والقسوة في جعل الممدوح قوة خارقة

لولا الخليفةُ والقرآن يقرؤه ... ما قامَ للناسِ أحكامٌ ولا جُمعُ
أنتَ الأمينُ أمينُ الله لا سرفُ ... فيما وَليتَ ولا هيّابة ورَعُ
مثلُ المهندِ لم تُبهَرْ ضريبتُهُ ... لم يغشَ غربيهُ تفليلٌ ولا طبعُ
وأرى الزنادَ من الأعياصِ في مهلٍ ... فالعالمون لما يفضي به تَبَعُ
ما عُدَّ قومٌ بإحسانٍ صنيعهمُ ... إلّا صنيعكُم فوقَ الذي صنعوا
أنت المباركُ يهدي الله شيعتُهُ ... إذا تفرقتِ الأهواءُ والشيعُ
فكلُّ أمرٍ على يُمنٍ أمرتَ به ... فينا مُطاعُ ومهما قلتَ مستمعُ
تلقى الرجالُ إذا ما خيفَ صولتُهُ ... يمشونَ هوناً وفي أعناقهم خضعُ
ما كانَ دونكَ من مقضى لحاجتنا ... ولا وراءك للحاجات مَّطلعُ
إنّ البريةَ ترضى ما رضيتَ بها ... إنْ سِرتَ ساروا وإنْ قُلتَ أربعوا رَبعوا[٢٥]

فريدة من نوعها، مستغلاً الدين كوسيلة لتمرير الخطاب ؛ لِمَا يمتلكه الخطاب الديني من سلطة تأثيرية مقدسة، يقول :

يرتكز خطاب الشاعر على الجانب الديني حتى يهيأ القاعدة لتمرير السياسة المضمرة في الخطاب، التي تتضمن تطبيق سياسة الشدة والقسوة والفوقية والإخضاع، فيتحول الممدوح، بفعل المديح السياسي، إلى طاغية يفرض جبروته على الرعية، وإلى إرهابي يمارس سلطة قاهرة ظالمة متخذة من الدين غطاءً لها . ولما كان الشاعر أداة من أدوات الخطاب الذي تتبناه سلطة بني أمية، فهو يتقمص ما يختلج في مكامنه، فيبدأ بتقديس الممدوح من خلال نسق ثقافي متجذر يتحرك فيه الشاعر في اللاوعي الجمعي الذي يفرض عليه اقتران المقدس بالقوة والعنف. فالشاعر يضفي على الخليفة صفات تجعل منه **قوة هائلة ومقدسة**، تعمل على دعم الخطاب وترويجه في الساحة السياسية لبني أمية، وتحمل، في الوقت نفسه، الدلالة النسقية المضمرة

لسلطتهم المُطلقة ورفضهم الآخر بشتى الوسائل . معتمداً في ذلك على الجمل الثقافية (**لولا الخليفةُ والقرآن يقرؤه**)، (**أنت الأمينُ أمينُ الله لا سرف)** التي تمثل الجانب الديني، و (**مثلُ المهندِ لم تُبهَرْ ضريبتُهُ**)، (**تُلقى الرجالُ إذا ما خيفَ صولتُهُ**) التي تمثل جانب القوة والسيطرة والغضب والشدة . فهو ـ الخليفة ـ ((علامة دالة على امتلاك الشعور بالقداسة، وهو بوصفه قدرة مقدسة بإمكانه أن يتحول إلى شيء آخر))، وتأتي نتائج هذه القوة في الجملة الثقافية ـ (**إنّ البريةَ ترضى ما رضيتَ بها .. إنْ سِرتَ ساروا وإنْ قُلتَ أربعوا رَبعوا**) ـ التي تمثل جانب الإخضاع .

ونتيجة لهذا يتحول الخطاب من منظور ديني إسلامي إلى خطاب سلطوي قمعي إقصائي يفرض سيطرته على الآخرين بوسائل قمعية مقنَّعة بغطاء ديني . فالقراءة الثقافية تكشف زيفَ هذا الدين البعيد كل البعد عن الدين الإسلامي القويم، الذي كان وجوده ـ الدين الإسلامي ـ وسيلة لتمرير سياسة السلطة الحاكمة، كما أسلفنا.

فالخطاب يتخذ من الدين أساساً في قوة الخليفة وتمركزه وتصدره على الآخرين، فيجعل ـ الخطاب ـ من الخليفة الشخصية المثلى لدى العالمين، فهو **أمين الله** . ووفق القراءة الثقافية يتبين لدى القارئ أنَّ الخطاب يدعو إلى السلطة الدينية المطلقة، وكأنَّ الخليفة متفرد في القوة والخلافة والدين لا يضاهيه أحد في ذلك .

وما يؤكد هذا الخطاب ما قاله ـ الشاعر ـ في القصيدة نفسها، من خطاب يحمل ثقافة تسقيط الآخر، والتفرد بالدين حتى تكون القوة والسلطة مختصة ببني أمية :

يا آل مروان إنّ الله فَضَّلكُمْ فضلاً عظيماً على مَنْ دينُهُ البِدَعُ(٢٦)

فبهذا البيت يتأسس خطاب الضد لكلِّ معارض لبنـــي أمية، لا سيما آل البيت (عليهم السلام). فالخطاب يستند إلى تفضيل بني أمية، من الله، ثم يوازن بينهم وبين من يدَّعون الدين، حسب قوله، فيضع حدّاً فاصلاً بين الفريقين أساسه الدين.

ويغدو بنو أمية رعاة الدين والمدافعين عنه من أعدائه، فهذا الفرزدق يمدح يزيد بن عبد الملك، ويجعله راعياً للدين والمسلمين في حربهم مع النصارى، فيقول:

فكمْ منْ مصلٍ قد رددتَ صلاتَهُ لهُ بعدَ ما قد كانَ في الرومِ نصَّرا
يديه بمصلوبٍ على ساعديهما فأصبحَ قد صلّى حنيفاً وكبّرا(٢٧)

فهذا الخطاب لا يلغي الأحزاب المعارضة لبني أمية، فحسب، بل يلغي فضل كلَّ الأولين في الإسلام بدءاً برسول الله ρ، ومَنْ دافع عن هذا الدين . فبنو أمية تبنوا خطاب السلطة الدينية المطلقة فكوَّنوا هالة قدسية لخطابهم توصلهم إلى هدفهم المبتغى وهو الخلافة . يدل على ذلك، من بعض الوجوه، جملته الثقافية الخطيرة (**فأصبحَ قد صلّى حنيفاً وكبّرا**)، التي تعطي للخليفة الأموي سمة الأنبياء، فالنبي هو مَنْ يتمتع بهذه الخصوصية في هداية الناس ودفعهم عن

الضلالة، ويتضح هذا في قوله تعالى : **{ هوَ الذي أرسلَ رُسُولَهُ بالهُدى ودينِ الحقِّ ليظهرهُ على الدينِ كُلِّه ولو كَرِهَ المشركونَ}** (٢٨).

فالدلالة النسقية المضمرة تتحدد في تبني بني أمية خطاب التفرد مصطبغاً بغطاء ديني، فقد استطاعوا أنْ يطرقوا كلَّ الأبواب للوصول إلى السلطة والحفاظ عليها.

ويبرز هشام بن عبد الملك مدافعاً عن الدين الإسلامي، فيسرف الفرزدق في مدحه، فهو الذي أقام الحقَّ ودحض الباطل، وحارب كل انحراف , وهذه القدرات تضفي على الخليفة صفات القداسة والربوبية، فيقول :

وما تركتْ كفًّا هشامٍ مدينةً بها عِوَجٌ في الدِّينِ إلّا تَقوَّما(٢٩)

فالنسق المضمر يحمل دلالة المنقذ ليس للبشرية فحسب بل منقذ الدين من الانفلات والانحراف، ونتيجة لهذا يكون بنو أمية، حسب الخطاب السياسي الديني، بمثابة الراعين للدين الإسلامي والمدافعين عنه، وهذه دعوة من بني أمية إلى السلطة المطلقة سواء الدينية أم السياسية.

فقد مهد بنو أمية الطريق للإعراب عن كفاءتهم لبلوغ السلطة أمام الرعية، بفضل تبنيهم السلطة الدينية التي كانت، بدورها، تحتل المكانة الكبيرة في نفوس الأفراد، فقد استغل بنو أمية هذه الثغرة؛ للتعبير عن أحقيتهم بالخلافة، وسبب الاختيار الإلهي، يقول عدي بن الرّقاع في مدح الوليد بن عبد الملك :

غير أنّ الوليد ما اختارهُ اللهُ وللمسلمينَ فيه رِعاءُ
رضيَ الله عنهمُ واصطفاهُمْ ولـه من عبادِهِ اصفيـاءُ
فأرى أنّهم لذلكَ أهلٌ فهُم خيرُ من تظل السماءُ
حفظوا ما ولاهم اللهُ منهم كلّ قومٍ بأمرِهِم أوليـاءُ
وإذا ما أرادَ رحمةَ قوم ربُّهُم فهو فاعلٌ ما يشاءُ
جعلَ الأمرَ في ذوي الرأي منهُمْ إن خيرَ البريةِ الأتقياءُ
ييأسُ الظلمُ أن يكونَ بأرض هم بها أو يجئَ من حيثُ جاءوا
سنّةُ اللهِ والرسولِ فما في أمرهم ريبةٌ و لا لَحْجاءُ
قوّمَ المسلمينَ حتى استقامتْ سِنّةُ الحقّ منهُمُ و الوفاءُ(٣٠)

هناك دعوة في هذه الأبيات إلى تبني خطاب الفوقية لأخذ الصدارة لبني أمية ؛ لكي يتهيأ لهم الظرف المناسب لكسب ود الجمهور لأخذ البيعة واعتلاء منصب الحكم بلا منازع، وهذا سيكون صورة من صور الاستبداد والحكم المطلق الذي ينفي كلَّ منافس للسلطة لا يصل إلى المستوى الذي وصل إليه بنو أمية، أقصد الديني، فهذا الخطاب جعل بني أمية تجلٍّ من تجليات الدين، بعدما اكتشف أنَّ الدين وسيلة للحكم المطلق.

فالدلالة النسقية المضمرة تبين أنَّ بني أمية عملوا على استبداد الحكم والخلافة من منظور إسلامي قائم على تأييد الله وطريق الحق، وهم بذلك يمثلون أداة من أدوات تشويه الدين لا نصره؛ لأنَّ أفعالهم تتنافى مع أقوالهم، فأيُّ دين يقبل سفك الدماء واغتصاب الخلافة ممَّن هم أحقُّ بها ؟ أيُّ دين يقبل الظلم والجور بحق الرعية ؟ لقد كان هذا الدين غطاءً يلبي مصالحهم وقد عملوا على تسويغه وصناعته وفقاً لما يقتضيه خطابهم .

وهذا بدوره ينعكس سلباً على سلطة الشعر التي انساقت وفقاً لِمَا تريده المؤسسة السياسية وانضوت تحت عباءتها، وبالتالي انتفى دور الشعر من أنْ يكون إصلاحياً كاشفاً خفايا السلطة من الزيف الذي يعتريها، لكنَّ الدور المناط لكشف المخبوء وراء النص يترتب على الناقد الثقافي، الذي يستخدم أدواته الثقافية لكشف الأنساق المضمرة وتعرية الخطاب والسلطة التي تبنته . وبالتالي سينكشف زيفها في التسلق على خطاب ديني مزيف يعمل على تشويه الدين من جانب، وتستفيد منه في رسم حدود سلطتها المطلقة من جانب آخر، فيكون الدين تبعاً لذلك أداة قمعية لا إصلاحية.

الخاتمة :

توصل البحث إلى جملة من النقاط، هي :

١.إنَّ الفكر الذي تبناه بنو أمية يقوم على ثقافة السلطة المطلقة، واستبداد الحكم، ومحاربة كل مَنْ ينوي التقرب منهم ومن حكمهم، من خلال إقصائهم للآخر ورفضه وتهميشه .

٢.غالى الشعراء كثيراً في مدحهم لحكام بني أميَّة ؛ لأسباب مادية، أو عصبية، أو مذهبيَّة . وقد أفاد بنو أميَّة من هذا الخطاب ؛ لأنَّه أعلن عن قوتهم وسيطرتهم، وإضفاء الشرعية على حكمهم وأفعالهم .

٣.فشل بنو أمية في تطبيق سياسة العنف، وإيهام الناس بأخذ الشرعية لهم، من خلال الخطاب الديني . فقد انعكس هذا الخطاب سلباً عليهم ؛ كونه يخالف الشريعة الإسلامية ؛ وكذلك قيامه على سفك الدماء، والسلطة المطلقة، وانتهاك حرية وحقوق الآخرين .

الهوامش :

(١) يُنظر: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، د. سمير الخليل: ١٢٠.

(٢) يُنظر: الصراع بين الثقافة والسلطة، حسن إبراهيم أحمد : ١٢٨

(٣) ديوان الأخطل: ١٤٧-١٤٨.

(٤) سورة التوبة: الآية: ٢٩.

(٥) ديوان نابغة بني شيبان: ٢٨- ٢٩.

(٦) الخطاب الأموي،(٤٠-١٣٢هـ), طارق محمد فضله العزام، إطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليا-الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م: ٤٢.

(٧) أثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي، عبدالله بن محمد العضيبي، رسالة ماجستير، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م: ٧١.

(٨) الخطاب السياسي في شعر العصر الأموي – إطروحة دكتوراه، بهجت مهجر حبش الطعمة، إشراف: د. أحمد حياوي السعد، كلية الآداب – جامعة البصرة، ٢٠١٠م: ١١٢-١١٣.

(٩) ديوان جرير : ٣٥٤-٣٥٥.

(١٠) تأريخ الرسل والملوك(تأريخ الطبري)، الطبري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،: ٢٠٣/٦.

(١١) ديوان الفرزدق: ٤٧٤.

(١٢) شعر كثير عزة، قراءة في الأنساق الثقافية، جميل بدوي حمد الزهيري، بحث منشور،ع : ١٠، ٢٠١٢م : ١٠٨.

(١٣) ديوان الفرزدق: ٤٦٥.

(١٤) يُنظر: الشعر فاعلاً إرهابياً، قراءة في خطابات شعرية سالبة، د. رحمن غركان: ٣٣. ويُنظر: المحمولات الثقافية في قصيدة المديح السياسية في العصر الأموي، مصدر سابق: ٤٤.

(١٥) الخلافة في الأدب الأموي، رائد جميل عكاشة، إطروحة دكتوراه، إشراف: أ.د حسين أحمد عطوان، كلية الآداب-الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م: ١٨٣.

(١٦) ديوان الفرزدق: ٢٤.

(١٧) سورة البقرة: الآية: ٢٥٦.

(١٨) ديوان جرير: ٣٩٧. أراد بالكنيسة كنيسة مار يوحنا التي تحولت إلى المسجد المعروف بالجامع الأموي. الأخرم: من ملوك بيزنطة.

(١٩) ديوان الفرزدق: ٥٣٨.

(٢٠) ديوان الفرزدق: ٢٥-٢٦.

(٢١) ديوان الفرزدق: ٧٦-٧٧.

(٢٢) ديوان الفرزدق: ٤١٠.

(٢٣) ديوان الفرزدق: ٤٢٨.

(٢٤) ديوان جرير: ٢٧٨.

(٢٥) ديوان جرير: ٢٧٨-٢٧٩.

(٢٦) ديوان جرير: ٢٧٨.

(٢٧) المصدر نفسه: ٣٠٠

(٢٨) سورة التوبة: الآية ٣٣.

(٢٩) ديوان الفرزدق:٥٢١

(٣٠) ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي: ١٥٩-١٦٠.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي، عبدالله بن محمد العضيبي، رسالة ماجستير، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.
- تأريخ الطبري، تأريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤،(د.ت).
- حضور النص الغائب: الفرزدق مرجعية للمتنبي، د.أحمد حياوي السعد، و د.محمد طالب غالب الأسدي، مجلة آداب البصرة، ع:٦٤، ٢٠١٣م
- الخطاب الأموي(٤٠-١٣٢هـ), طارق محمد فضله العزام، إطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليا-الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م.
- الخطاب السياسي في شعر العصر الأموي – إطروحة دكتوراه، بهجت مهجر حبش الطعمة، إشراف: د. أحمد حياوي السعد، كلية الآداب – جامعة البصرة، ٢٠١٠م.
- الخلافة في الأدب الأموي، رائد جميل عكاشة، إطروحة دكتوراه، إشراف: أ.د حسين أحمد عطوان، كلية الآداب-الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م.
- دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، د. سمير الخليل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠١٤م.
- ديوان الأخطل، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ
- ديوان جرير، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
- ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي، تحقيق:د٠نوري حمودي القيسي،د٠حاتم صالح الضامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧م.
- ديوان الفرزدق، علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
- ديوان نابغة بني شيبان، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م.
- الشعر فاعلاً إرهابياً، قراءة في خطابات شعرية سالبة، د. رحمن غركان، رند للطباعة، دمشق، ط١، ٢٠١٠م.
- شعر كثير عزة، قراءة في الأنساق الثقافية، د.جميل بدوي حمد الزهيري، بحث منشور،ع: ١٠، ٢٠١٢م.
- الصراع بين الثقافة والسلطة، حسن إبراهيم أحمد، دار الحوار، ٢٠١٧م.
- المحمولات الثقافية في قصيدة المديح السياسية في العصر الأموي، جميل بدوي حمد الزهيري، مجلة كلية التربية/ واسط، ع: ١٣، ٢٠١٣م.